بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم
وعلى آله وصحبه وسلم تسليما
[مقدمة التحقيق]

لم يقتصر اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب على العصر الوسيط فقط، بل كان مستمراً على ممر العصور والأجيال. ومن أهم مظاهره تلك الهجرات الفينيقية القديمة التى خرجت من سواحل الشام عبر البحر المتوسط إلى سواحل المغرب وأسبانيا حيث أسست مدنًا تجارية لا زالت باقية إلى الآن، مثل "طنجة" و"قرطاجة" و"مالقة" و"قادس" و"قرطبة" وغيرها. ومثل حروب طروادة فى آسيا الصغرى التى حاصرها اليونان عشر سنوات (١١٩٣ - ١١٨٤ ق. م) وتغنى بمواقعها الشاعر "هوميروس" فى الإلياذة. ومثل الحروب الفارسية اليونانية التى كانت فتوحات "الإسكندر" وإنجازاته الحضارية من أهم مراحلها. وفى العصر الوسيط تمثل هذا اللقاء فى الحروب التى نشبت بين أقوى إمبراطوريتين فى ذلك الوقت: الفارسية والبيزنطية. وبعد ظهور الإسلام اتخذ هذا الصراع شكلاً دينيًا فى مظهره، فصار صراعًا بين المسيحية والإسلام. ثم استمر هذا اللقاء فى عصورنا الحديثة وإن كان قد اتخذ أشكالاً وألوانًا مختلفة كالاستعمار والإمبريالية والصهيونية..

والذى يهمنا فى هذا الموضوع هو ذلك اللقاء بين الشرق الإسلامى والغرب الأوروبى المسيحى فى العصر الوسيط، وما نجم عنه من إسهام حضارى متبادل بينهما.

لقد اصطلح المؤرخون على تحديد مراكز هذا اللقاء بالجسور أو المعابر الجغرافية الثلاثة التالية باعتبارها كانت أقوى المناطق التحامًا بين الجانبين.

* * *

obeikandl.com

الأندلس

المراد بالأندلس هو أسبانيا الإسلامية بشبه جزيرة "أيبيريا" التى فتحت فى خلافة "الوليد بن عبد الملك" وعلى يد "موسى بن نصير" وطارق بن زياد سنة ٩٢ هـ/ ٧١ م). واستمر الحكم الإسلامى فيها حتى سقوط مملكة "غرناطة" آخر مملكة إسلامية فى أسبانيا سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٣ م.

لم يكن الفتح الإسلامى لأسبانيا مجرد احتلال عسكرى صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال ثم هبطت إلى الجنوب، بل كان حدثًا حضاريًا هامًا امتزجت فيه حضارة سابقة!كالرومانية" و"القوطية" مع حضارة جديدة لاحقة وهى الحضارة الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الأوروبى المجاور، وأثرت فيه، كما تغلغلت فى الحياة الأسبانية وتركت فيها آثارا عميقة ما زالت معالمها واضحة إلى اليوم. ولا شك أن المسلمين حينما دخلوا أسبانيا وجدوا فيها سكانًا مثل "القوط" و"بقايا الرومان"، فاختلطوا بهم، ولم تلبث أن نشأت طبقة اجتماعية جديدة، وهى طبقة المولدين التى هى خليط من دم أهل البلاد الأصليين ودم العرب والبربر الفاتحين. هذا إلى جانب طبقة المستعربينMozarabes) (وهم الأسبان المسيحيون الذين ظلوا على ديانتهم المسيحية ولكنهم تعربوا بدراسة اللغة العربية وآدابها وثقافتها، واتخاذ الأسماء والأزياء العربية.

وهكذا كانت أسبانيا بعد الفتح الإسلامى مزدحمة بالأجناس المختلفة، وكان من الطبيعى أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض، سواء بالمصاهرة أو الجوار أو الحرب، وأن يأخذ كل منها عن الآخر ويعطيه، مما كان له أثره فى مزج هذه العقليات المختلفة والعناصر المتباينة. وما يقال عن تنوع هذه العناصر

البشرية التى سكنت الأندلس، يقال أيضًا عن التيارات الثقافية المتنوعة التى تكونت منها حضارتها.

فمن المعروف أن الحضارة الأندلسية - مثل كل الحضارات - لم تنشأ فجأة، بل مرت فى أدوار مختلفة وخضعت لمؤثرات حضارية مشرقية - شامية وحجازية ومصرية وعراقية - تربطها بالوطن الإسلامى الأم باعتبارها جزءًا منه. كما خضعت لمؤثرات أفريقية بحكم ارتباطها ببلاد المغرب والسودان الملاصقة لها من الجنوب. هذا إلى جانب المؤثرات المحلية الأوروبية بحكم البيئة التى نشأت فيها.

ولا شك أن وضع الأندلس الجغرافى فى الأطراف الغربية البعيدة للعالم الإسلامى، وبجوار الغرب المسيحى فى قلب أوروبا، جعلها فى مواجهة مستمرة دائمة مع الدول اللاتينية هناك، وهذا جعلها بالتالى من أكثر الدول الإسلامية معرفة وتأثيرًا بها. ذلك لأن الحياة الإسلامية فى الأندلس لم تعرف الانفصال الجغرافى أو العنصرى أو الحضارى بين المسلمين والمسيحيين، بل كانت حياة مشتركة اختلط فيها الفاتحون مع أهالى البلاد الأصليين.

وعلى الرغم من أن ما أخذته الأندلس من أوروبا كان أقل مما أعطته لها من ثقافتها، إلا أن هذا الوضع الجغرافى الأوروبى الذى تميزت به الأندلس، وهذا التداخل المستمر بين الإسلام والمسيحية فى شبه جزيرة " أيبيريا"، قد أعطى الأندلس - رغم تعلقها بالوطن الأم - طابعًا فريدًا، وشخصية مستقلة مميزة. فالحضارة الأندلسية على هذا الأساس حضارة إسلامية عربية أسبانية، ولا يمكن أن نسميها إلا بهذه التسميات الثلاث. وعلى هذا النحو يمكن القول بأن حركة الفتح الإسلامية لأسبانيا، كانت استمرارًا لدور سابق، بمعنى

أنه لم تعقبها حركة ركود أو توقف حضارى، بل استمرت القافلة تسير بسبب تواصلها مع الحضارة الأسبانية الأوروبية.

التقسيم الإدارى فى الأندلس

إن من يدرس جغرافية شبه وجزيرة "أيبيريا"، يجد أن حدودها الطبيعية تصلح تمامًا لأن تكون حدودًا سياسية إدارية، فسلاسل الجبال ووديان الأنهار التى تقطعها فى خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس، قد قسمتها إلى أقسام طبيعية يمكن تحويلها إلى وحدات إدارية وعسكرية واضحة المعالم. فما كان على المنظم أو الإدارى إلا أن يثبت حدود هذه الوحدات ويعين قواعدها، فلا يجد صعوبة فى إدارتها وجباية خراجها. وهذا ما فعله الرومان والقوط. ثم جاء المسلمون فاحتفظوا بهذه التقسيمات الإدارية ولكنهم سموها مدنًا بدلا من كيفتاس Civtas، " وكورا " بمعنى ولايات - بدلاً من بروفنكياس Provingias، وأضافوا إليها عددًا من المنشآت التى تعطيها الطابع الإسلامى المميز لها كالمسجد الجامع، وقصر الإمارة أو الخلافة، والأسواق والقيساريات إلى غير ذلك مما يناسب طبيعة دولتهم الإسلامية. هذا إلى جانب ما أضافوه من مدن جديدة لأن البناء والعمران من مستلزمات التحضر ومثال ذلك:

(١) الجزيرة الخضراءAlceciras التى بناها "طارق بن زياد " بجوار جبل طارق، وكانت تعرف بجزيرة أم حكيم محلى اسم زوجته التى تركها هناك أثناء قيامه بفتح الأندلس.

(٢) طريف Tarifa، غربى الجزيرة الخضراء، وهى على اسم "طريف بن مالك" أحد قواد، موسى بن نصير" الذى أغار على هذه المنطقة فسميت البلدة باسمه.

(٣) قلعة أيوب Calayud فى شمال أسبانيا. بناها "أيوب بن حبيب اللحنمى) الذى ولى الأندلس بعد مقتل ابن عمته "عبد العزيز بن موسى بن نصير".

(٤) مدينة سالم Medinaceli فى شمال أسبانيا. بناها "سالم بن ورعمال المصمودى" أحد قواد البربر الذين شاركوا فى فتح الأندلس.

(٥) تطيلة TUDELA على وادى الأبرو فى شمال أسبانيا، بناها الأمير الحكم بن هشام المعروف بالربضى، وينسب إليها الشاعر "أبو العباس القيسى المعروف بالأعمى التطيلى (ت ٥٣٢هـ/ ١١٢٧م)".

(٦) مرسية MURCIA فى شرق الأندلس وقد تعنى المرساة التى أرسيت قواعدها. بناها الأمير "عبد الرحمن الأوسط الأموى سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١م) " وينسب إليها علماء كثيرون متنل "ابن سيده اللغوى الصنوبر (ت ٤٠٨ هـ/ ١٠٦٥م) "صاحب المخصص فى اللغة، والعالم "ابن سبعين (ت ٦٦٩ هـ أ" صاحب الرد العلمى المشهور على الإمبراطور "أفريدريك الثانى"، والفيلسوف الصوفى "محيى الدين بن عربى (ت ٦٣٨ هـ)، صاحب كتاب الفتوحات الملكية.

(٧) مجريط MADRID عاصمة أسبانيا الحالية، بناها "الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) "، وينسب إليها الرياضى الفلكى " مسلمة المجريطى (ت ٣٩٤ هـ) ".

(٨) المريةALMERIA قاعدة الأسطول الأندلسى فى شرق أسبانيا، بناها المسلمون الأوائل وازدهرت فى عهد الخليفة "عبد الرحمن الناصر"، وينسب إليها "بنو ميمون" قادة الأسطول الأندلسى والمغربى على عهد، المرابطين" و"الموحدين، والعالم الزاهد "أبو العباس بن العريف (ت ٥٣٥ هـ)" صاحب كتاب محاسن المجالسة. وقد يكون اسم المرية يعذى المرئية أى التى ترى من بعيد فى البحر عن طريق مناراتها.

(٩) سهلة بنى رزينALBARRACIN فى شمال شرق مدريد، نسبة إلى أمراء بنى رزين المغاربة الذين حكموا تلك المنطقة. ولا يفوتنا أن نشير إلى اسم البرانس الذى أطلق على بعض جبال أسبانيا الشمالية، وهو اسم قديم لكتلة البربر "البرانس" فى المغرب التى تنتمى إليها قبيلة "صنهاجة". هذا إلى جانب المنيات والحصون والقصور والقرى التى ما زالت أسماؤها العربية والمغربية تزخر بها الأراضى الأسبانية.

هذا، ويلاحظ أن كلا من الكور والمدن فى الأندلس، كان لها استقلالها الإدارى عن العاصمة قرطبة، وهذا يدل على أن الأندلسيين لم يحرصوا على نظام المركزية فى جهازهم الإدارى، لأن طبيعة البلاد الجبلية تتنافى مع هذا التركيز سواء فى الكور أو المدن. فولاة الكور وقواد المدن كان لهم قسط كبير من النفوذ المحلى وحرية التصرف دون الرجوع إلى الخليفة فى "قرطبة". ولكن القول بأن هذه اللامركزية كانت صفة عامة فى تاريخ أسبانيا الإسلامية والمسيحية بوجه عام حتى اليوم.

نظام الحكم والإدارة أو ما يسمى بالخطط

حظيت الأندلس بنظام حكم إدارى متطـور إلى حد كبير عن مـثيله فى الشرق الإسلامى أو الغرب المسيحى.

فإذا تنـاولنا خطة الوزارة فى قرطبـة عاصـمة الأندلس فى عهـد الدولة الأموية، وجدنا أنها كانت متعددة المناصب ولها رئيس وزراء يسمى الحاجب، وهو الذى يتصل بالخليفة. وهذا الـتعدد فى مناصب الوزراء لا نجده فى نظام الوزارة بالشرق الإسلامى أو الغرب الأوروبى، حيث كانت السلطة مركزة فى يد وزير واحد، وقلما وجد وزيران. أما فى الأندلس فكل ناحية من نواحى الإدارة العامة مثل المال والترسيل والمظالم والثـغور، لها وزير مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة للوزارة وهى الحجابة التى تختلف عن الشرق، حيث كان الحاجب هو الشـخص الذى يقف بباب الخليفة أو السلطان. كـذلك وجد فى القصر الخلافى بالأندلس بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء فيه. فالوزارة فى الأندلس كـانت قريبـة الشبـه بنظم الوزارات الحديثـة CABINET OF MINSTERS وهى فى هذا تختلف عن نظام الوزارة المعـروف فى الشرق أو الغرب فى العصر الوسيط. ومن الطريف أن وزيـر المالية فى الأندلس كان يسمى فى بعض الأحـيان بصاحب الأشـغال وهى نفس التـسمـية المسـتعملة الـيوم فى أسـبانيـا، حيـث يسمى وزير الماليـةMINISTRO DE HACIENDA أى وزير الأشغال وتعنى وزير المالية.

ومـا يقال عـن الوزارة يقال أيضـا عن خطة القـضـاء فى الأندلس، إذ نلاحظ فرقًا جوهريًا بين منصب قاضى القضاة فى الشرق وقاضى الجماعة فى الأندلس. فقاضى الـقضاة فى بغداد أو القاهرة هو قـاضى الدولة كلها، ومن

سواه من القضاة فى الأقاليم والأمصار نواب عنه، فهو المتصرف فيهم تعيينا وعزلا، ولهذا يلقب بقاضى القضاة فقط أو قاضى بلد كذا. أما قاضى الجماعة فى الأندلس فهو قاضى العاصمة قرطبة. والجماعة هنا تفسر بالجماعة الإسلامية التى استقرت فى العاصمة الجديدة قرطبة. ولهذا فإن سلطته كانت قاصرة على قرطبة ونواحيها فقط، بمعنى أنه لم يكن له سلطان على بقية القضاة فى الكور والمدن الأندلسية الأخرى، فهم مستقلون بأنفسهم وليسوا نوابًا عنه، وهو لا يمتاز عنهم إلا من الناحية الأدبية فقط، بحكم كونه قاضيًا للعاصمة، ومستشارًا للخليفة، وإمامًا للصلاة فى أيام الجمعة والأعياد. وهكذا نجد أن نظام القضاء فى الشرق اتسم بطابع المركزية بينما اتبع فى الأندلس نظام اللامركزية.

هذا وقد كان يوجد فى الأندلس حق الاستئناف، فالخصم الذى لا يرضيه حكم القاضى، يستطيع أن يتظلم أمام قاض أخر يسمى صاحب الرد، الذى كان ينظر فى القضية مرة ثانية، فإذا وجد فيها مظلمة ردها للقاضى، أو رفعها للسلطان كى يصدر فيها حكمه بعد استشارة مجلس المشورة الذى كان يضم قضاة الفتيا.

ويبدو أن ولاية الرد لم تكن موجودة إلا فى المغرب والأندلس إذ أن فقهاء الشرق ولا سيما أبا الحسن الماوردى لم يذكرها فى كتابه "الأحكام السلطانية". ويبدو أن صاحب الرد كان يشبه وزير الشكايات الذى ظل يقوم بدور الاستئناف فى المغرب إلى عهد قريب. ولقد وجد فى المشرق ديوان المظالم، ولكن لم تكن له صفة الثبات والديمومة مثل ولاية الرد. هذا، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغرب الإسلامى بصفة عامة، سار على سياسة

تشريعية هامة وهى التمسك بالمذهب الواحد فى قضاياه الدينية والدنيوية، ألا وهو المذهب المالكى، حتى قيل أن أهل المغرب والأندلس لا يعرفون سوى كتاب الله وموطأ مالك بن أنس " عالم دار الهجرة ت (١٧٩ هـ)، ولا شك أن هذه السياسة التى تتفق مع وضع المغرب والأندلس الجغرافى والحربى كثغور إسلامية، قد جنبت تلك البلاد شرور الفتن والخلافات المذهبية، وحفظت لها سلامتها ووحدتها الروحية، فكانت لذلك درعًا واقيًا للإسلام فى أقصى الغرب، وهذه الظاهرة لا نجدها فى المشرق مثل القاهرة ودمشق وبغداد التى تعددت فيها المذاهب والفرق، واشتدت الخلافات بينها، ومع ذلك كان لا يخشى عليها من هذا التعدد والخلاف المذهبى لأنها تقع فى قلب العالم الإسلامى.

* * *

obeikandl.com

الظروف التاريخية

لما انقلبت الوحدة إلى تكثر أصبحت الأندلس دولا متعددة، لكل دولة حاكم وإدارة وجيش وحياة أدبية وفكرية شبه مستقلة، وأصبحت العلاقات بين الحكام قائمة على التحرز والحذر وإنفاق الأموال فى بناء الحصون والاستكثار من المرتزقة فى حال الدفاع، إذ غدت مشكلة الحدود الداخلية أهم مشكلة وأبرزها بين أولئك الأمراء؛ أو أصبحت قائمة على طلب التوسع والغلبة وانقضاض القوى منهم على الضعيف فى حال الهجوم. وفيما بين ذلك محالفات توجهها المآرب العابرة، ثم لا تلبث من بعد ذلك ان تنفصم. وفى هذا فقد الأمراء القدرة حتى على التوحد المؤقت أمام الخطر المشترك، ذلك لأنهم رضوا أول الأمر؟متفرقين - أن يدفعوا الجزية الروم، ثم عجزوا عن جمع الكلمة حين أصبحت الجزية·مكسبا لا يكفى القوى الغالب، واصبح اقتصاص الحدود واقتضاض الفرص المؤاتية للغزو هو المبدأ السائد. بل لعلهم ذهبوا إلى ما هو ابعد من ذلك حين كانوا يحتكمون إلى صاحب الروم فى خلافتهم الداخلية، أو حين يستعين به المضعوف منهم ليأخذ له بحقه. وبذلك تفتت الصخرة الصلبة المخوفة إلى أجزاء صغيرة واهنة، وأصبحت الأندلس معبرا لقوى الشمال والجنوب، فهى إما عرضة لغزو الروم، وهى إما جزء من المغرب، ولم يبق لها شخصيتها القديمة، لأن أمراءها شاءوا أن يفزعوا إما إلى الشمال أو إلى الجنوب، وفيما كانوا يتقاتلون على تحقيق أطماعهم الفردية الصغيرة وقعوا فريسة لأطماع خارجية.

فإذا شئنا الدقة قلنا نؤرخ هذا العصر؟من الناحية الأدبية، إننا نؤرخ وقوع الأندلس بين قوتين ضاغطتين أو كلكلين ثقيلين تقع بينهما صورة

مضطربة لأمراء نسميهم " ملوك الطوائف "، يتفاوتون فيما بينهم قوة وضعفا وبقاء وزوالا، كما تتفاوت أحجار الشطرنج على الرقعة، فى حرية الحركة وفى مدى البقاء والقدرة على الثبات. ومن أجل ذلك لم نعد الفتح المرابطى وسيادة المرابطين عصرا جديدا فى تاريخ الأندلس الأدبى، لأنه على الرغم مما أحدثه الفتح من تغيرات فى النفسية الأندلسية وفى بعض الأوضاع السياسية والاجتماعية فان الأندلس من الوجهة الثقافية والأدبية قهرت فاتحيها كما قهرت يونان من تغلبوا عليها ذات يوم. ومما كان الفتح المرابطى إلا تحقيقا لفعل القوة الضاغطة الآتية من الجنوب وقد يكون مركز الثقل الأدبى قد انتقل أحيانا إلى مراكش ولكن اكثر القائمين بذلك النشاط الأدبى كانوا يومئذ من الأندلسيين.

ولم يتشبث الأندلسيون بعيد الفتنة، طويلا، بالرمز الذى تأوى إليه الجماعة الإسلامية، أعنى اسم الخلافة ورسمها، على ما كانت حال المشارقة، ولكن بنى المنتسبين إلى العلوية حاولوا ان تكون لهم إمرة المؤمنين، كما فعل الفاطميون بمصر. وكان من ذلك أعلن صاحب اشبيلية القاضى ابن عباد أن الخليفة هشاما المؤيد (آخر خليفة ذى بيعة من الأمويين) ما زال على قيد الحياة، إذ عمد إلى شخص يدعى " خلف " الحصرى شبيها بهشام فدعا الناس إلى بيعته من وراء حجاب - رجاء ان يستمد من وجود الخلافة فى اشبيلية سندا معنويا لنفسه. ولكنه بعد سنوات استنفذ مآبه من هذه الإشاعة فأعلن أن هشاما قد مات، المزعوم نهاية للرمز المقدس. وتلك " اخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها " كما يقول ابن حزم.

والحق أن سياق الأحداث بعيد الفتنة مباشرة كان محيرا لذى الوعى

المتيقظ، سواء أكان الرجل الـواعى فقيها أو شاعرا، أما الفقـيه الذى نقدر فيه الوعى، مثل ابن حزم، فقد أقضت مضجعه الحال التى صارت إليها الأندلس دون إمامة، وظل يحس أنه بعيد عن التعاطف مع تلك الإمارات المتنابذة، إلا لم يلبث ان انصرف إلى حومـة الفقه والمطارحات الجدلية، وقـد تكيف وعيه بحـسب المشكلات الصغـيرة التـى تعرض بين الحـين والحين، وأعـرض عن التفكير فى المشكلة الكبرى، مشكلة الوحدة والرابطة القوية.

وأما المؤرخ الواعى الذى يمثله ابن حيان فأصابه الذهول لما أصاب البلاد من تفكك وما دهم قرطبة " عاصمة الخلافة " من تخريب، ولكنه بعد وقت غيـر طويل أمسك بالقلم ثانية ليكتب؟نزولا عـلى الأمر الواقع - تاريخ تلك الممالك نفسها. " وأنسأتنى المدة أن لحـقت بيدى منبعث هذه البربرية الشنعاء المدلهمة، المفرقة للجماعة، الهـادمة للمملكة المؤثلة، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامـية، ففاضت أهوالها تعاظمـا أولهنى عن تقييدها، ووهمنى ان لا مخلص منها، فعطلت التاريخ إلى ان خلا صدر منها.. " ثم جرى القلم بعد احتباس وعاد المؤرخ سيرته الأولى، بل عاد يكتب، ليقدم ما يكتبه إلى " أكرم خاطب، وأسنى ذى همـة، الأمير المؤثل الإمارة المأمون ذى المجدين الكريم الطرفين يحيى بن ذى النون.

وأما الشاعر الواعى فانه بكى قرطبة قليلا وتحسر على ما فات وتلدد فى تيـه الضـيـاع زمنا يفـتش عن الحـامى الذى يرتزق من عطايـاه، وينفق لديه سلعته، وما لبثت الأمور ان عادت تجرى مجرها، واذا كل أمير لدى أى شاعر هو أعظم الناس وأكرمـهم وأشجعهم جنانا ولسانا، وأصـبح الشاعر كالفـقيه الصنيـعة والمؤرخ المحدود الأفق، بل فـاقهـما فى توسـيع الهوة بين الحـاضر

والماضى، وفى " التسوير " حول أميره بسياج من الثناء الطويل العريض، سياج يوهم به صاحبه انه حقيق بخير ما تمنحه الأقدار، وانه كفاء بما بين يديه وما دونهما، وذلك ترسيخ لمعنى الفرقة، وقصر نظر عن التمرس بالمشكلة العامة. ولولا إثارة من شكوى سوء الحال يومئذ لكان الشعر الأندلسى مغلفا على المتطلبات الصغيرة التى تستدعيها المناسبات كأن يتبارى شعراء بطليموس فى وصف فرس للمتوكل فى كفله ست نقط، أو يكدون قرائحهم لوصف الأعذار الذنونى. ولكن لم يحن الحين للحديث عن الشعر، فلذلك موطن آخر.

من هم لولئك الأمراء الذين نطلق عليهم اسم: ملوك الطوائف "؟ وما هى إماراتهم؟ لو كان المجال مجال الدراسة التاريخية، من أجل التاريخ نفسه، لكان الإسهاب أمرا معقولا بل مطلوبا لازما، أما فى هذه المقدمة فان الإيجاز هو الأمر الضرورى، وعلى هذا نستطيع أن نقسم أولئك الأمراء فى أربع فئات:

أ - موالى العامرية

حكموا فى شرق الأندلس أى فى المرية ومرسية وبلنسية ودانية وما والاها من جزائر. فكانت المرية ومرسية تحت حكم خيران العامرى (٤٠٥ - ٤١٩) ثم خلفه فيهما زهير العامرى (٤١٩ - ٤٢٩) وبعده انشطرت المدينتان فى دولتين فأصبحت المرية من نصيب بنى صمادح (٤٣٣ - ٤٨٤) وأصبحت مرسية من نصيب بنى طاهر (٤٢٩ - ٤٧١)؛ أما دانية والجزائر فكانت لمجاهد العامرى وابنه اقبال الدولة من بعده (٤٠٠ - ٤٦٨) إلى أن ضمها بنو هود إلى ملكهم وسقطت (٤٨٤) فى يد المرابطين. وشهدت بلنسية عددا من

الأمراء توالوا عليها إلى أن ثار فيها القاضى ابن جحاف (٤٨٥ - ٤٨٧) ومن يده أخذها السيد القنبيطور (٤٨٧) ومنه استولى عليها المرابطون.

ب - البربر

١ - بنو زيرى الصنهاجيون فى غرناطة ومالقة: نظم هذه الامارة حبوس ابن ماكسن، وكون لها جيشا، وعقد بينه وبين الأمراء جيرابه روابط المودة، وحاول شيئا من التوسع فاستولى على قبره وجيان، وخلفه ابنه باديس فكانت بينه وبين زهير العامرى صاحب المرية حرب، قتل فيها زهير وكاتبه ابن عباس، ثم مد نظره إلى ما فى يد بنى حمود، وكانوا قد ضعفوا فاستولى على مالقة، وهنا اصطدم بابن عباد فى نزاع من أجل الفوز بتلك المدينة، فكان النصر له على عباد وقد طال حكم باديس والقى شئون الدولة إلى وزيره اليهودى ابن النغرالة، وإلى نفوذ النساء فى القصر، حتى ساءت الحال، وثار أهل غرناطة باليهود فقتلوا منهم مقتلة. ولما توفى باديس خلفه حفيده عبد الله بن بلقين صاحب المذكرات، وتجددت المنافسة بينه وبين ابن عباد إلى أن سقطت طليطلة فى يد الفونسو السادس (الاذفونش) ملك قشتاله، واتفق أمراء الأندلس على الاستعانة بالمرابطين. وكان المرابطون هم الذين ازالوا عبد الله عن ملكه (٤٨٤).

٢ - بنو الأفطس أصحاب بطليموس (وقد انتسبوا إلى قبيلة تجيب العربية، ولكن الثابت انهم من البربر) كانت مملكتهم واسعة، اشتبك صاحبها من جهة مع بنى عباد فى معارك متعددة، ومع بنى

ذى النون من جهة اخرى، ومن اشهر رجالها محمد بن الأفطس الملقب بالمظفر (٤٦١) الذى وقف ضد فرناندو (فرديناید الأول) ملك قشتالة. وأخيرا وافق على ان يدفع الجزية لذلك الملط، ومنهم المتوكل ابن الأفطس الذى شهدت المملكة فى عهده شيئا من الاستقرار، إلى إن أزال المرابطون دولته.

٣ - بنو ذى النون فى طليطلة: (وهى الثغر الأوسط، ومن الممالك المواجهة لحدود الممالك الأسبانية، ومن ثم كان موقعها هاما لمن يستولى عليها). ومن رجال هذه الدولة إسماعيل بن ذى النون الملقب بالظافر، وولده يحيى الملقب بالمأمون، وحكم هذا الثانى ثلاثة وثلاثين عاما، وكان على نزاع مع ابن هود صاحب سرقسطة وابن عباد صاحب اشبيلية، وقد استعان المأمون بفرناندو ضد بنى هود، فى مقابل دفع الجزية وإقراره له بالسيادة، عندئذ ذهب ابن هود أيضا يستعين بفرناندو.

غزا المأمون هذا بلنسية واستولى عليها، وحاول الاستيلاء على قرطبة فلم يمكنه ابن عباد من ذلك. ولما تولى الأمر حفيده يحيى القادر اضطرمت من حوله الفتن حتى فر ولجأ الفونس يستعين به على إرجاعه إلى مملكته، فأعانه على ذلك. غير إن الفونس استولى على طليطلة، فأدرك أمراء الطوائف طبيعة ما يحيط بهم من خطر.

٤ - بنو رزين أصحاب السهلة: مؤسس الدولة هذيل بن عبد الملك فى شنتمرية، وكان هذا جبارا عسوفا محبا للترف، وخلفه ولده أبو

مروان عبد الملك (٤٩٦ت) وقد طال أمد حكمه حتى بلغ ستين عاما. أدى الجزية لألفونس بعد سقوط طليطلة. وخلفه إبنه حسام الدولة يحيى، فلم يكن بشيء، ومنه استولى المرابطون على شنتمرية (٤٩٧) وخلعوه.

ج - العرب

١ - بنو عباد اللخميون فى اشبيلية (٤١٤ - ٤٨٤): مؤسس الدولة هو القاضى إسماعيل بن عباد؛ بدأت أولا فى اشبيلية، ثم ظلت تتسع حتى أصبحت اكبر دولة من دول الطوائف، فقد استولى المعتضد على لبلة وعلى حصون من مملكة بنى الأفطس وعلى ولبة وعلى جزيرة شلطيش وشنتمرية الغرب. ثم فتح مدينة شلب وولى عليها ابنه المعتمد، وبذلك أصبحت الدولة تمتد من شرقى الوادى الكبير حتى المحيط الأطلسى غربا والجزيرة الخضراء جنوبا. إلا أن المعتضد كان كغيره من ملوك الطوائف يدفع الجزية لفرناند. ولما جاء المعتمد سار على سياسة أبيه فى التوسع فاستولى على مرسية وتحرش بمملكة غرناطة، وفاوض ألفونس ليحالفه كى يحتلا غرناطة معا؛ وكان ابن عمار رسوله إليه. وظل المعتمد يدفع الجزية لألفونس. حتى اضطر إلى الاستعانة بالمرابطين بعد سقوط طليطلة.

٢ - بنو هود الجذاميون: أصحاب سرقسطة أو الثغر الاعلى، تولوا عليها بعد ان زالت دولة التجيبيين التى لجأ إليها الشاعر ابن دراج؛ واول بنى هود سليمان الذى كان فى حرب مع المأمون بن ذى النون، ولجأ كل منهما إلى ملك من ملوك الاسبان يستعين به فى

هذا الخلاف. وقبل موت سليمان قسم مملكته بين اولاده الخمسة منها خمس ممالك متنابذة. وأبرز الاخوة أحمد الملقب بالمقتدر، وقد تغلب على ثلاثة من اخوته وقامت بينه وبين الرابع حسام الدولة منازعات طويلة وفى عهده غزا النورمانيون مدينة بربشتر (٤٥٦) فتقاعس عن انجادها لأنها من املاك أخيه ثم فاد إلى ضميره واعان على استردادها. وكان المقتدر يدفع الجزية لملوك قشتالة، واستعان بالسيد القنبيطور ومن معه من جنود مرتزقة، وكذلك استولى على دانية (٤٦٨). وتجدد الفتنة بين خلفائه فعاد كل من المؤتمن، واخيه المنذر يستعين بالأجانب، وكان المؤتمن يعتمد على جهود السيد القنبيطور، وكان هذا البطل الأجنبى هو العقل المدبر واليد الفعالة لدى المؤتمن، وبجهوده تم الاستيلاء على بلنسية. وقد اتخذه المؤتمن أداة يصد بها زحف المرابطين حتى وجد أن شانجة (شانسو) الاراجونى يهدد مملكة سرقسطة، فلجأ إلى حماية المرابطين إلى أن قتل (٥٠٣) وتسلم المرابطون المدينة بدعوة من أهلها.

٣ - بنو القاسم الفريون فى البونت: مؤسس هذه الإمارة عبد الله بن قاسم وخلفه ابنه محمد عين الدولة (٤٢١ - ٤٣٤) ثم أحمد عز الدولة (٤٤٠) وقد تعرضت هذه الدولة الصغيرة لغارات السيد القنبيطور ودفعت له الجزية حتى استولى عليها المرابطون.

٤ - بنو حمود الحسنيون: رشحوا انفسهم للخلافة فى الفتنة، فأصبح على بن حمود خليفة بقرطبة وتلقب بالناصر (ت ٤٠٨) وولى

بعده أخوه القاسم بن حمود المأمون؛ ثار عليه ابن أخيه بن على بمالقة واستولى على قرطبة (٤١٣) وتلقب بالمعتلى وكذلك غلب على الجزيرة الخضراء ولكن امده بقرطبة لم يطل إلى أن قتل (٤٢٧). فبويع إدريس بن على ومن بعده حسن بن يحيى وكان الصراع بين الحموديين أ،فسهم سبب ضعفهم وكذلك كان بنو عباد يطمحون إلى الاستيلاء على مملكتهم حتى تم ذلك عام (٤٤٦) وبذلك زالت الدولة الحمودية فى الجزيرة مثلما زالت من مالقة عام (٤٤٩). ويجب ان نذكر ان بنى حمود كانوا عربا ولكن اعتمادهم كله كان على العناصر البربرية أو السودانية.

د - موالى الأموية

وهم؟ فى هذا المقام – بنو جهور أصحاب قرطبة، وأول القائمين منهم بالأمر أبو الحزم بن جهور، باختيار من شعب قرطبة. وتشمل هذه الامارة مدنا اخرى منها جيان وبياسة وأبدة، وقد قامت سياسة أبى الحزم على التآلف والمصانعة دون الحرب. ولما توفى (٤٣٥) خلفه ابنه الوليد بن جهور فسار على سيرة ابيه. وبين أطماع بنى عباد وبنى ذى النون فى قرطبة سقطت المدينة فى يد العباديين وزالت دولة بنى جهور بعد أربعين سنة من الحكم.

وهذه نظرة سريعة شديدة الايجاز، ولكنها تدل على جانب من الخلافات بين أولئك الأمراء، مثلما تشير إلى اعتمادهم على عون الأجنبى وعلى رضاهم بدفع الجزية، حتى كان استقلالهم فى حقيقته تبعية مقنعة أو كما قال أحد المؤرخين: "وصاروا للفنش (ألفونس) عمالا يجبون له الأموال لا يخالف أمره أحد ولا يتجاوز له الحد". ولا بد من الإشارة إلى إننى لم

أورد فى هذا المقام جـمْيع الإمارات، ولا سيـاق التتابع على الإمـارة الواحدة ولا وقفت عند الصراع الطويل بين الإمارات المختلفة.

وليس هنالك من تفاوت كبير بين هذه الإمارات، فـيما تنتهجه من نظم سياسية أو إدارية، فالسيد فـيها ذو سلطان مطلق يميل فى أغلب الأحيان إلى الاستـبداد والاستـهانة بالدمـاء وانتهاز الفـرص، مع ميل إلى الاسـتكثار من أسبـاب الترف وضروب العمـران. وهو يعتمد على وزير أو وزراء من طبـقة الكتاب أو الفقـهاء؛ وللوزير الكاتب مكانة هامة فى الدولة لأنه اللسـان المعبر عن سياستها وعلاقتهـا بأسلوب لبق أو قوى. أما العلاقة بين هذا السيد فهى علاقة الجبـاية نظرا لحاجته إلى المال لأعداد الجند وغيـر ذلك من شئون دولته وأسباب ترفه.

ولا يشذ عن كـثيرا إلا بعض نزعـات فردية كـانت تنزغ بصاحبـها إلى العدل والمسـالمة وإنصاف الرعـية، وإلا النظام الذى اسـتحدثـه أبو الحزم ابن جهور فى قـرطبة فكان فريدا فى نوعه وسط تلك النظم الفـردية الجانحة إلى الاستبداد. فان أبا الحزم لم يظهر بمظهر الإمارة، فزعم انه إنما يدير البلد حتى يتفق الناس فيما بينهم على من يولونه؟بعيد الفتنة - وظل يقطن فى داره التى كانت له قبل زوال الدولة الأموية، وأبى الانتقـال إلى أحد القصور، وكان ما يجمـعه من أموال الدولة يجـعله بأيدى أمناء يشرف هو عليهم، وصـير أهل الأسـواق جندا له، وجعل أرزاقـهم رؤوس أمـوال تكون بأيديهم، مـحصـاة عليهم، يـأخذون ربحهـا، ورؤوس الأموال باقـية محـفوظة، وفرق عـليهم السلام وأمرهم يجعله فى الدكاكين والبيوت، حتى إذا دهمهم أمر فى ليل أو نهار كان سـلاح كل واحد معه فى بيـته أو دكانه، فرخت الأسـتعار فى زمانه

ونشطت التجارة وتغالى الناس فى أثمان المبانى. وكان إذا سئل عن شىء قال: ليس لى عطاء ولا منع، هو للجماعة وانا رابه أمر أو عزم على تدبير أحضرهم وشاورهم، وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء، وأقام علاقاته بجيرانه على الموادعة والمسالمة.

وسار ابنه أبو الوليد على سيرته فى درء الحدود حتى كان الأمن فى زمنه خيرا مما كان عليه أيام قوة الشرطة فى الدولة الأموية والعامرية، وتنافس ابناه على السلطة فى حياته، وأخذ كل منهما يستميل إليه طائفة من الجند، ويصطنع طائفة من الرعية، فعمد أبو الوليد إلى تحديد سلطة كل منهما فجعل لعبد الرحمن وهو الأكبر أمر الجباية والإشراف على الموظفين والتوقيع فى الصكوك السلطانية وأسباب النفقة، وجعل إلى عبد الملك الإشراف على الجند وأعطياتهم وتجريد البعوث.

ولكن سياسة المسالمة والمواعدة لم تكن لتحفظ دولة تقوم بين عدة دول فاغرة إلى الالتهام، محدوة بالجشع فى التوسع. ولذلك فان دولة بنى جهور زالت ولم تعمر طويلا.

وأصيبت الأندلس؟فى عهد الطوائف - بثلاث هزات عنيفة تركت اثرا بعيدا من اشاعة القلق والخوف والتوجس من المستقبل، وردد الأدب صداها، ولهذا السبب يجدر أن نوليها شيئا من الشرح فى هذا المقام:

وأولاها استيلاء النورمانيين (الاردمانيين) على بربشتر (٤٥٦) وبلغ خبرها قرطبة فى صدر شهر رمضان من ذلك العام " فصك الأسماع وأطار الأفئدة وزلزل أرض الأندلس قاطبة وصير لكل شغلا يشغل الناس فى التحدث به والتساؤل عنه والتصور لحلول مثله ". وقد صور ابن حيان هذه

الحادثة بدقة، وخلاصة ما قال إن جيش الاردمانيين حاصرونا وجدوا فى قتالها، ولم يتحرك يوسف بن هود لنصرتها، ووكل أهلها إلى أنفسهم، فظل العدو يحاصرها أربعين يوما، حتى قلت فيها الأقوات، فألحوا عليها، ودخلوا المدينة الخارجية، فتحصن الناس فى مدينتهم الداخلية، وكانت السقيا تستمد من سرب يفضى إلى النهر، فوقعت فيه صخرة حالت دون تيسر الحصول على الماء، فاجتمع على أهلها الجوع والعطش، فطلبت الحامية الأمان، فكان ذلك لها. ولكن الاردمانيين غدروا بهم وقتلوهم جميعا ولم يطلقوا غير قائدهم ابن الطويل وقاضيهم ابن عيسى. واستولوا من الغنائم على ما لا يكاد يحصى كثرة، وزعموا أنه حصل لأكبرهم فى حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبكار، ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة جمل، وقيل إنه أصيب فيها قتلا وسبيا ما يبلغ خمسين ألفا. وترك قائد الاردمانيين حامية فى المدينة عددها ألف وخمسمائة من الخيالة وألفان من الرجالة. غير أن المقتدر أحمد ابن هود سعى بعد أشهر من الحادثة لإسكات سوء القالة عنه فاستولى على المدينة، وأسر من فيها فاسترق بعضا وأطلق بعضا بفدية عظيمة.

وثانية الهزات وأبلغها خطرا استيلاء الاذفونش على طليطلة، ولا بد لفهم هذه الحادثة من توطئه تعود بنا إلى أيام المأمون ابن ذى النون الذى كان قد جعل سياسة دولته ترتكز على كاهلى رجلين: ابن الفرج الذى كان يتولى تدبير الأجناد والأعمال الديوانية، والفقيه أبو بكر بن الحديدى الذى كان يتولى النظر فى المظالم وغير ذلك مما لم يقع فى نطاق سلطة ابن الفرج. ولما مات المأمون أوصى حفيده بأن يتمسك بابن الحديدى وأوصى هذا الفقيه بالحفيد الذى لقب بالقادر. وكانت مشيخة طليطلة تسعى للتخلص من ذلك

الحفيد فوقف ابن الحديدى فى وجوههم وكشف عن دسائسهم ضده فى حياة المأمون حتى إن المأمون احتال عليهم وسجن عامتهم فى مطبق بحصن وبذة، إحدى قلاعه المنيعة. فلما توفى المأمون وخلفه القادر أخذ من بقى معه من تلك البطانة يغرون بالفقيه ليتخلصوا منه، ونصحه ابن الفرج ان يحفظ لأبن الحديدى يده، وأن يحميه من أولئك الدساسين. ولكن القادر لغرارته لم يعر هذا النصح اهتماما، وإنما واطأ الناقمين عليه وأطلق المسجونين بمطبق وبذة، وأدخلهم البلد سرا ملثمين سنة ٣٦٨؟فعل كل ذلك بمالأة الفقيه ابن المشاط قاضى قونكة، وهو صديق ابن الحديدى الذى استدرج صديقه إلى قصر القادر حيث أحيط به وقتل غدرا.

وكان لابن الحديدى "شعبية" كبيرة، ولذلك ثار العتمة عندما سمعوا بمقتله، وكثرت الفرقة، وانقسم الناس أحزابًا، وعندئذ أعلن ابن عبد العزيز صاحب بلنسية أنه خارج على طاعة ابن ذى النون. وتحركت أطماع اذفونش بن فرذلند، فأخذ يشتط على القادر فيما يتطلبه، والقادر يبذل له ما يريد. وتحرك ضد القادر حزب المشيخة الذين أخرجهم من السجن، فلما وجد الفوضى عامة هرب من طليطلة، وانفلت زمام البلد، وأقام أهلها؟ كما يقول ابن بسام - " فى هياط ومياط ولجب واختلاط، ليس عليهم أمير، ولا فيهم إلى الصواب مشير". وعندئذ تزعم عليهم رجل يدعى ابن القلاس، وأشار عليهم باستدعاء المتوكل ابن الأفطس، فدخل هذا طليطلة عقب سنة ٤٧٣.

أما ابن ذى النون الهارب فانه أخذ يراسل إذ فونش، ويذكره كيف أن بنى ذى النون هم الذين مكنوه من الملك بعد أن ثارت المنازعات بينه وبين أخويه شانجه وغرسيه، وأن المأمون هو الذى آواه، عندما كان بحاجة إلى

مأوى، فخف إذ فونش لمسارعته. وعندئذ فر المتوكل من طليطلة بعد أن "قمش ما بقته الفتنة من فرش فخم وسرادق ضخم وآنية وكتب". وترك المدينة "كالسفينة خانتها الريح، والجسد بان عنه الروح".

وحاصر الاذفونش طليطلة ومعه ابن ذى النون سنة ٤٧٤، ولم يثبت ألط ليطلون لحصاره، وترامـوا على إذ فونش يشكون ابن ذى النون، ويستصرخونه عليه، فلم يستمع إليهم. وكان القادر قد تعهد لصاحبه بأن يؤدى إليه حصونا وأموالا لقاء تلك المساعدة، وألح إذ فونش عليها بجيوشه، فغلت الأسعار، وكثر القتل والجلاء والتخريب. وطفق سكانها يستصرخون ملوك الطوائف فلا يجدون معينا، فتوسل المشيخة إلى إذ فونش لعله يرضى عنهم، فأدخلهم عليه حاجبه شنتند، الذى كان من قبل يعمل عند المعتضد ابن عباد، فأراهم أذفونش أن مصابرتهم لن تجديهم، وأن أحذا من ملوك الطوائف لن ينصرهم، وأطلعهم على ذلة وفود أولئك بباله، وانه يستنكف أن يأخذ منهم الضريبة التى ترده من أولئك الملوك. فخرج مشيخة طليطلة من عنده متعجبين يائسين، وسلموه البلد، فدخله على حكمه. وعندئذ وجد انه يستطيع أن يماحك ملوك الطوائف فأخذ يغلو فى إذلالهم ويشتط فيما يطلبه منهم.

وولى شنتند حكم المدينة فأدارها إدارة عادلة أمالت إليه القلوب وزادت فى نفور الناس من ملوك الطوائف، وكان شنتند يرى أن تعطى البلد لأبن ذى النون وأن تبقى عامرة بأهلها، وأنْ لا يلح أذفونش على ملوك الطوائف لأنهم فى حقيقة حالهم عمال عنده، فلم يقبل نصحه، وبدأ يغير جامع طليطلة ويحوله إلى كنيسة عام ٤٧٨، ولم يكن فيه من أحد إلا إمامه الشيخ

المغامى وهم يستعجلونه ليخرج منه " وبين يديه أحد التلامذة يقرأ، فكلما قالوا له عجل، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل، ثم قام ما طاش ولا تهيب، فسجد به وأقترب، وبكى عليه مليا وأنتحب، والنصارى يعظمون شأنه، ويهابون مكانه، لم تمد إليه يد، ولا عرض له بمكروه أحد ".

وقد كان لسقوط طليطلة أثر عظيم فى نفوس أهل المدن الأندلسية الأخرى، وهو الحادث الذى جرت نتائجه إلى استدعاء المرابطين.

ونثلث هذه النكبات بذكر ما جرى على بلنسية، وأن كانت قد سقطت بعد استيلاء المرابطين على معظم الأندلس، وإنما نوجز خبرها لنعود إلى السياق التاريخى فنتحدث عن استقدام المرابطين ثم اندثار إمارات الطوائف.

وكان بطل هذه الحادثة هو السيد القنبيطور الذى نسجت الأساطير الكثيرة من بعد حول بطولته وامجاده، وكان قد ربى فى بلاط بنى هود، واستغله هؤلاء فى أعمالهم الحربية " واستعرب " بعض الشىء " فكانت تدرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب، استخفه الطرب، وطفق يعجب منها ويعجب، ونتلخص قصة انحائه على بلنسية فى أن اذفونش لما أخذ طليطلة وعد ابن ذى النون أن يعطيه بلنسية فذهب هذا إلى قونكة عند أشياعه بنى الفرج وبقى فيها حتى مات صاحب بلنسية؟ابن عبد العزيز - وعندئذ دخلها ابن ذى النون.

وفى تلك الأثناء كان المرابطون قد اخذوا يحتلون البلاد ويدين لهم ملوك الطوائف، فخافهم أحمد بن يوسف بن هود صاحب سرقطة على ملكه، فسلط القنبيطور على بلنسية لكى يجعله عقبة تحول بين المرابطين وتمنعهم من الوصول إلى دولة سرقسطة. فأقام القنبيطور على تلك المدينة

وتسلم زمامها ثائر يدعى القاضى ابن جحاف، فتخلص من ابن ذى النون أو قتله أقارب ابن الحديدى ثارا للفقيه المتقدم ذكره.

ولم يكن ابن جحاف إلا فقيها لا يحسن أمور السياسة " ولم يعلم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم، وأن عقد ألوية البنود، غير الترجيح بين العقود وانتحال الشهود " فقوى طمع لذريق؟وهو أسم السيد - فى أخذ المدينة وألح عليها بالحصار، وأخذ ابن جحاف يستصرخ المرابطين وقبل أن تصله النجدات، اضطر إلى تسليم المدينة. وعندئذ طالبه السيد بذخيرة نفيسة كانت لأبن ذى النون فأنكر أنها عنده، وحلف أمام أهل الملتين على ذلك، وأخذ القنطيبور عليه عهدا أنه أن وجدها عنده حل سفك دمه، وبعد البحث عنها وجدها، فأضرم للفقيه نارا وأحرقه، كما أحرق رجالا آخرين. "وأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ نارا وجلل سائر طبقاتها حزنا وعارا" . وظلت بلنسية كذلك حتى استعادها أمير المسلمين عام ٤٩٥ .

كان الفونس السادس (أذفونش بن فرذلند) قد وضع نصب عينيه الأستيلاء على الأندلس، ولكن سياسته اتجهت نحو اضعاف ملوك الطوائف بالتفرقة وبث التنافس فيما بينهم، وايجاد أسباب العداوة المتجددة بين واحدهم والآخر، وضرب الجزى عليهم ليجوروا على رعاياهم فتسفسد عليهم النوايا. ولم تكن الغاية من هذه السياسة خفية أو مكتومة، إذ كان يتحدث بها وزراء الفونس ومساعدوه إلى من يتصلون به من ملوك الطوائف حتى قال شئلاند (ششننند) مرة لصاحب غرناطة: "إنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر حتى غلبهم العرب، وألحقوهم بانحس البقاع؟جليقية - فهم الآن عند التمكن طامعون بأخذ ظلاماتهم ولا يصح ذلك إلا بضعف الحال

والمطاولة، حتى إذا لم يبق مـال ولا رجال اخذناها بلا تكلف " ويعلق عـبد الله صاحب غرناطة على هذا بقوله: فكان الجـميع يساير الأمور ويدافع الأيام ويقول: من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا؟بزعمهم - يأتى الله بالفرج وينصر المسلمين.

وجرب الفونس سيـاسة التهديد المباشر أيضا قـبل سقوط طليطلة، لكى يزيد فى الفزع والرعب، إذ تحـرك بجيوشبة من الافرنج والجـلالقة والبشكنس عـام ٤٧٥ " فشق بلاد الأندلس شـقا، يقف علـى كل مدينة منهـا فيـفسـد ويخرب ويقتـل ويسبى ثم يرتحل إلى غيرها، ونزل على أشـبيلية فاقـام عليها ثلاثة أيام فأفسـد وخرب، وكذلك فعل فى شذونه واحـوازها، وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة".

فلما سقطت طليطلة فى يده قدر أن الحين قد حان لتنفيذ خطته الكبرى، فاحتوشه الزهر والكبر وداخله الإعجاب وتسمى بالأنبراطور ذى الملتين، وظن أن سياسـة المطاولة قد بلغت غايتهـا، ففاز باستخـلاص جميع أقطار ابن ذى النون وذلك ثمانون منبـرا سوى البنايات والقرى المعمـورات، وحاز من وادى الحجـارة إلى طلبيـرة، وفحص اللج واعـمال شنتمـرية كلها. وأخـذ الأمراء يترددون إليـه مهنئين مرسلين الأمـوال من قبلهم، حتى إن صاحب شنـتمرية حسام الدولة ابن رزين نهض إليـه بنفسه ومعه هدية سنية ليـقره عاملا له فى بلده، فجازاه على هديته بفرد وهبه إياه.

وارتفعت راية الخطر المـباشر بالنسـبة للمعـتمد حيـن بعث إلى الفونس بالضريبة المقـررة بعد سقوط طليطلة فردها ولم يقبلهـا وأرسل يتهدده ويطلب حصونا عينها، على لسان رسوله اليهودى (ابن مشعل أو ابن شاليب) فغضب

المعتمد وضرب رأس الرسول بمحبرة كانت أمامه، فانزل دماغه فى حلقة، وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة. وصمم المعتمد على سياسة جديدة، وأن كان يتخوف شأن الملثمين حين قال قولته المشهورة: "رعى الجمال خير من رعى الخنازير".

ولا ريب فى أن المعتمد خضع فى هذا الاتجاه إلى ضغط العدو الخارجى من ناحية وإلى ضغط الرأى العام الداخلى من ناحية أخرى، إذ كان الناس يفدون على يوسف بن تاشفين يستنصرونه لينقذ البلاد، قبل أن تذهب إليه رسل أبن عباد. ثم انقاد بعض ملوك الطوائف إلى رأى ابن عباد، وأيدوه نزولا على حكم الأمر الواقع، فلما قام وفد من فقهاء الأندلسين بالسفارة لدى يوسف لبى الدعوة، وجاز إلى الجزيرة واجتمعت الجوش المتحدة فى الزلاقة من أقليم بطليموس، وقابلها الفونس بجيوش كثيفة من الجلالقة والأفرنجة. وكانت معركة حامية الأوار، أبلى فيها الصحراويون، وتميز فيها المعتمد، وأثخن بالجراحات، وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم الآخر. واحرز المسلمون النصر بعد خسائر بالغة. وكر يوسف عائدا إلى بلاده، وعاد ابن عباد إلى أشبيلية، وجلس للناس، وهنىء بالفتح، وقرأت القراء، وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه. قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم وأعدت قصيدة انشده إياها، فقرأ القارئ: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾، فقلت: بعدا لى ولشعرى، والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره إليه وأقوم به.

***

حول الكتاب

إذا كان مصطلح "السيرة" يختص بالأعلام، فإن للكتاب الذى نتحدث عنه فى هذا العرض سيرة تشبه سير الرجال، لا تخلو من طرافة وتشويق.

* وتقع هذه المخطوطة فى ١٠٥ ورقة من الحجم المتوسط، ومعدل سطور الصفحة الواحدة تتراوح ما بين ٢٢ و٢٥ سطرًا. أما كلمات كل سطر، فتتراوح ما بين سبع كلمات وثلاث عشرة كلمة.

* ويتخلل الأسطر عناوين أسماء المترجم بهم بخط غليظ أحمر.

* وليس هناك تاريخ محدد للنسخ، ولكن عبارة "أعادها الله" التى كان يثبتها الناسخ بإزاء اسم مدينة مالقة، تدل على أنها نسخت بعد سقوط مدينة مالقة سنة ٨٩٢ هـ، ولكن اختلاف الخطوط فيها يوحى بأنها لم تكتب فى زمن واحد.

* ويذكر د. قاسم أحمد السامرائى ـ الذى فحص أصل هذه النسخة سنة ١٩٨٨ فى مكتبة خاصة فى الرباط حين زار مالكها فى داره برفقة د. يحيى محمود ساعاتى، وصديقه المستعرب الهولندى د. بيتر شورد فان كوننكزفيلد ـ أن النص كتب «بالمداد الأسود والأحمر بخط أندلسى واضح على نوعين من الكاغد، أولهما: عربى سميك يعود إلى القرن التاسع للهجرة وأوراقه قليلة، والثانى: وهو الأغلب، أوروبى أبيض يعود إلى القرن العاشر (السادس عشر للميلاد) تظهر فيه الخطوط المائية المتوازية والعلامة المائية فيه على شكل عنقود عنب. أما تسفيرها (أى تجليدها)، فهو مغربى حديث جدا».

* والنسخة ـ كما يصفها د. قاسم السامرائى ـ مرممة ترميمًا بدائيًا سيئًا طمس الكثير من أسطر رؤوس الصفحات فأخفاها. وفى آخر النسخة نقصٌ لا يزيد على بضع ورقات، وفى داخلها نقص آخر يقع فى ورقة واحدة أو اثنتين لا تزالان محفوظتين فى خزانة الأستاذ الحسن السائح فى الرباط.

* وبالإضافة إلى ما فى النسخة من محو ونقص وطمس، فإن فيها تصحيفًا كثيرًا وسقطًا وتآكلاً فى بعض الكلمات والأسطر، وأخطاء لغوية وإملائية.

* * *

obeikandl.com

الخلاف حول اسم الكتاب

* يسميه بعضهم "تاريخ مالقة"، والبعض الآخر "تاريخ ابن عسكر.

* وآخر من عرّف بهذه المخطوطة هو الأستاذ د. عبد الله المرابط الترغى فى مقالة له بعنوان: "سبتة من خلال أعلام مالقة"، وهى منشورة فى مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد الخاص بندوة سبتة: التاريخ والتراث، السنة ٣، ع ٣، ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩ م، ص. ١٣٥ - ١٦١.

* وفيها يقول:

ورغم أن الكتاب يتعلق بمالقة وأخبار أهلها والتعريف برجالها، فإنه لم يخل من ذكر بعض البلاد الأخرى وعرض أخبار رجالها، ولا سيما البلاد القريبة من مالقة كسبتة فى عدوة المغرب. وتبرز سبتة على أكثر من واجهة بين مواد كتاب أعلام مالقة، فهى تبرز ضمن واجهة تراجم الرجال المعرَّف بهم سواء أكانوا سبتيين أم من بلاد غيرها. وتبرز على واجهة المصادر التى اعتمد عليها المؤلف فى جمع مواد كتابه. وأخيرًا تبرز وبشكل لافت للنظر ضمن النصوص الأدبية التى تخص سبتة أو ترتبط بأى صنف من أصناف العلاقة التى تجمع بين الأدباء فى كل من سبتة ومالقة.

* كما اعتمد عليها نفر من محققى التراث الأندلسى، مثل الفقيه محمد المنونى فى كتابه "العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين"، ود. محمد بن شريفة فى تحقيقه لبعض أجزاء "الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشى، وكتابه: "أبو المُطرِّف أحمد بن عَمِيرَة

المخزومى حياته وآثاره"، ود. إحسان عباس فى تحقيقه لشعر أبى عبد الله الرّصافى البلنسى وبعض أجزاء "الذيل والتكملة"، والأستاذ إبراهيم بن مراد فى تحقيقه لكتاب "مختارات من الشعر المغربى الأندلسى" تنشر لأول مرة، ود. صلاح جَرَّار فى تحقيق لشعر مَرْج الكُحْل الشُّقرِى، ود. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب فى تحقيقهما لبعض أجزاء "صلة الصلة" لابن الزبير، ود. محمود ومحمد عبد الرحمن خيارى فى رسالته للدكتوراه: "رسائل موحدية جمعًا وتحقيقًا ودراسة"، والمستعربان الإسبانيان ماريا إيزابيل كاليروسكال وفيرخيليو مارتينز اينمورادو فى كتابهما "مالقة مدينة الأندلس"* وآخرون.

* ونظرًا لأهمية مدينة مالقة ـ وهى من أعمال كورة ريّة فى الأندلس ـ موضوع هذه المخطوطة، فقد حظيت بعدة تواليف فى تراجم أعلامها، مثل:

١ ـ فقهاء ريّة لقاسم بن سعدان المتوفى سنة ٣٤٧ هـ؛

٢ ـ رجال مالقة المُؤلَّف للحكم المستنصر؛

٣ ـ تاريخ مالقة لأبى عبد الحميد إسحاق بن سلمة القَيْنِى؛

٤ ـ كتاب فى المشهورين من أعلام مالقة لأبى زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى؛

٥ ـ الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام لأبى العباس أصبغ بن على بن هشام المالقى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ؛

٦ ـ الإكمال والإتمام فى صلة الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام لأبى عبد الله محمد بن على بن خضر بن هارون الغسّانى المشهور بابن عسكر المتوفى سنة ٦٣٦ هـ

وهذا الكتاب هو صلة وتتميم لكتاب أصبغ.

٧ ـ ذيل أو تذييل تاريخ مالقة لأبى الحسن على بن عبد الله بن الحسن الجُذامى البُنّاهى المالقى كان حيًا سنة ٧٩٣ هـ. .

ويبدو أن هذا الكتاب تذييل على كتاب ابن عسكر وابن خميس الآتى ذكره، ولم نقف على ذكره إلا عند ابن الخطيب.

٨ ـ أما الكتاب الثامن ـ من الكتب التى وضعت فى التعريف بأعلام مدينة مالقة وأدبائها وفقهائها ـ فهو كتاب ابن خميس الذى ينشر لأول مرة بتحقيق د. صلاح جرّار، وهو تتمة وتكملة لكتاب خاله ابن عسكر السابق.

* يقول السخاوى عن ابن خميس فى سياق حديثه عن مدينة مالقة:

وعمل أبو عبد الله محمد بن على بن خضر بن عسكر الغسّانى لها تاريخًا لم يكمله، فأكمله ابن أخته أبو بكر محمد بن محمد بن على بن خميس، وسماه "مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار".

وتسمّى المصادر كتاب ابن خميس: "تاريخ مالقة"، و"التتميم"، و"التكملة" و"أدباء مالقة". أما العنوان المثبت على

غلاف مخطوطة هذا الكتاب، فهو: "كتابٌ جُمعَ فيه بعض فقهاء مالقة وأدباؤهم". وهذه كلها تسميات صحيحة لكتاب ابن خميس.

فوائد الكتاب

ولهذا الكتاب فوائد جمّة. فهو أولاً مصدر أدبي وتاريخي أندلسي له مكانته المرموقة في المكتبة الأندلسية، إذ يشتمل على تراجم ثلاثة وسبعين ومائة علمٍ من أعلام مدينة مالقة والطارئين عليها.

* وقد حذا فيه ابن خميس حذو أستاذه ابن عسكر في ترتيب كتابه ترتيبًا هجائيًا حسب الترتيب المغربي، وبدأ من حيث انتهى أستاذه. فقد وصل أستاذه إلى أول حرف الميم، فترجم ابن خميس للأعلام التي تبدأ بحرف الميم، ثم حرف الصاد، فالعين، فالغين، فالقاف، فالسين، فالشين، فالهاء، فالياء. وهذا يعني أن الأحرف الأولى كانت من نصيب ابن عسكر؛ ولذلك لا نجد تراجم تبدأ بهذه الحروف في كتاب ابن خميس.

* ويمتاز هذا الكتاب بكثير من التراجم مما لا نعثر عليه في مصدر آخر سواه، كما أنه انفرد بمعلومات كثيرة من الأعلام التي لها تراجم في مصادر أخرى.

* وتشمل تراجم هذا الكتاب: الخلفاء والرؤساء والأدباء والشعراء والفقهاء والمدرّسين، وغيرهم من طبقات الأعلام.

* أما منهج ابن خميس في الترجمة لأعلامه، فهو يقوم على ذكر اسم العلم كاملاً، ثم كنيته، ثم بلده مبينًا إن كان من مالقة أو من أحد

أعمالها أو طارئًا عليها. ثم يسوق لنا أسماء شيوخه وتلاميذه ورحلاته ومؤلفاته وأهم الوظائف التى شغلها، ثم يسوق لنا نماذج من شعره ونثره. وغالبًا ما يطيل فى إيراد أشعار المشاهير ورسائلهم، ويظهر لنا واضحًا ميل ابن خميس إلى الشعر أكثر من النثر، ثم يختم الترجمة بذكر تاريخ وفاة صاحب الترجمة، وفى أغلب الأحيان بذكر اليوم والشهر والسنة ومكان الدفن.

وفى هذا الكتاب أيضًا قصائد ونصوص نثرية كثيرة لا نجد لها ذكرًا فى مصدر آخر.

* استمد ابن خميس معلوماته فى هذا الكتاب من مصادر وتقييدات كتابية وشفوية، وهى: كتاب "الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام" لأبى العباس أصبغ بن هلى بن هشام المالقى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ، وبعض تقييدات أبى عمرو بن سالم، ومؤلفات خاله ابن عسكر مثل كتاب "الإكمال والإتمام"، ورسالة شيخه أبى على الرندى إلى أهل سبتة، وكتاب "طلوع الزهرة السنية فى سقوط زهرة الثنية" لمحمد بن حسن البنّالى، وتاريخ ابن حمادة السبتى وابن الفرضى والرازى وابن حيان وابن الصَّيْرفى وابن أبى الفيّاض وابن مزين والحميدى، و"طبقات الشعراء" لابن الفرضى، و"رجال" أبى الفضل عياض، و"قلائد العقيان" للفتح بن خاقان، و"رجال مالقة" المُؤلَّف للحكم المستنصر، و"فهرسة" ابن الباذش، وفهرسة شيوخ أبى القاسم ابن الطيلسان المسماة: "اقتطاف الأنوار واختطاف الأزهار"، و"زاد المسافر" لصفوان ابن إدريس، و"المظفّرى" لابن

الأفطس، وكتاب أبي الطاهر السبتي في موثقي زمانه، و"المقامات الحسنية" لأبي عبد الله الجوني، و"صاحب الخبر".

أما المصادر التي نقلت من كتاب ابن خميس واعتمدت عليه، فمنها "صلة الصلة" لابن الزبير، و"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي، و"الإحاطة" و"أعمال الأعلام"، وهما للسان الدين بن الخطيب، و"الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" للسخاوي، و"جامع مختارات من الشعر المغربي والأندلسي".

* وكلمة أخيرة: إن هذا الكتاب نفيس ومهم في تخصصه بمدينة مالقة، إضافة إلى أنه يقدم لنا "معلومات تفصيلية أدبية وعلمية وتاريخية كثيرة عنها، ويصوّر لنا جوانب شتى من الحياة الأدبية فيها مثل المجالس الأدبية والمعارضات الشعرية

والعلاقات التي تربط بين الأدباء. والكتاب واحد من مصادر أندلسية قليلة وصلتنا واختصت بالتعريف بأعلام مدينة بعينها، كما فعل لسان الدين بن الخطيب في زمنٍ تال عندما ألف "الإحاطة في أخبار غرناطة". وقد أورد السخاوي في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" أسماء طائفة من الأندلسيين الذين ألفوا كتبًا في التعريف بأعلام مدن أندلسية بعينها. وقد ضاع أكثر هذه الكتب ولم يصل إلينا منها سوى عددٍ قليل.

صور من النسخة المخطوطة

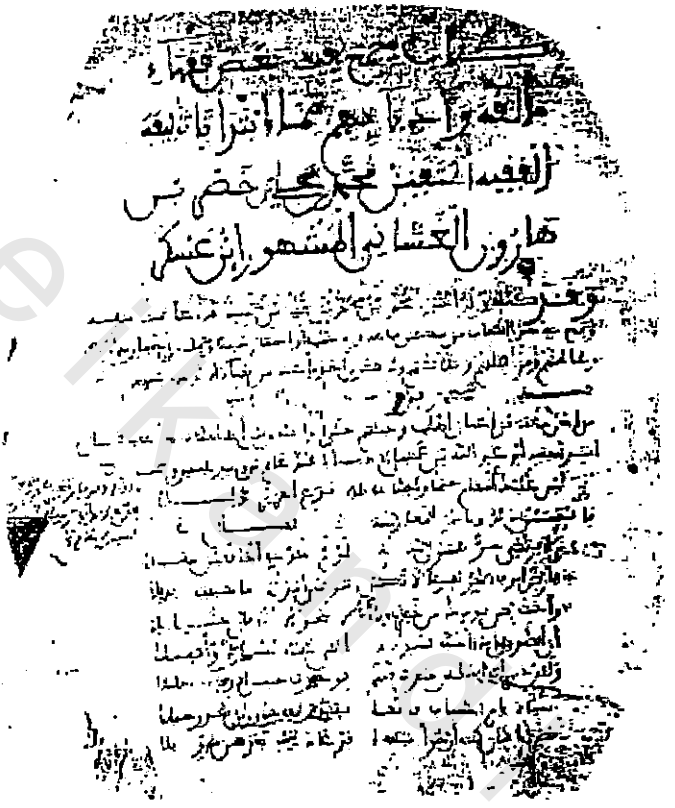

الصفحة الأولى من النسخة المحفوظة بالخزانة الحسينية بالرباط

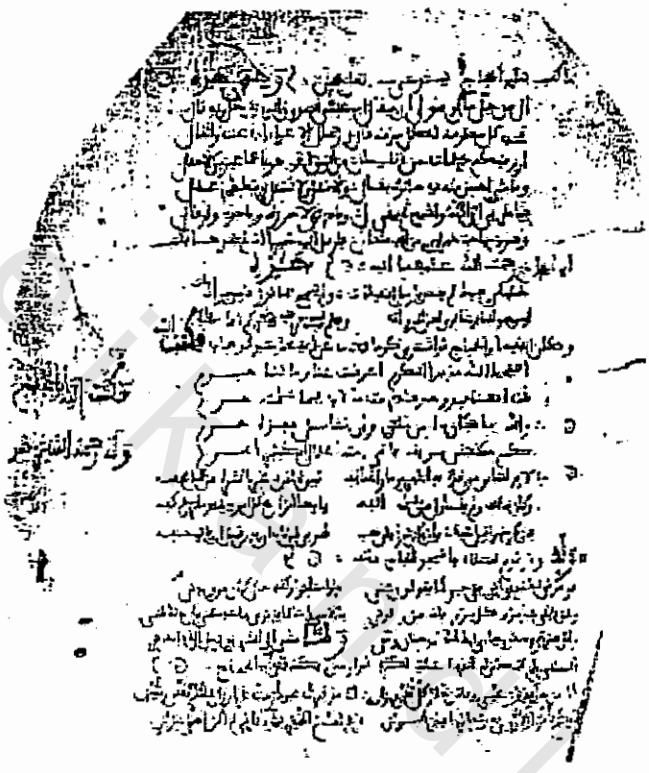

الصفحة قبل الأخيرة من النسخة المحفوظة بالخزانة الحسينية بالرباط